

كوميديا القلب المعتم

بقلم بدر توفيق

- ص ١١ يا اخوتي الذين يعبرون في الميدان مطرفين
لا تخجلوا .. ولترفعوا عيونكم اليّ
لربما اذا التقت عيونكم بالموت في عينيّ
يتسهم الفناء داخلي .. لانكم رفعتم رأسكم مرة !
.....
- ص ١٢ لا تحملوا بعالم سعيد ..
فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد ..
وخلف كل نائر يموت احزان بلا جدوى ..
ودمعة سدى !
- ص ١٣ الله لم يففر خطيئة الشيطان حين قال لا
لا تحملوا بعالم سعيد
فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد
وخلف كل نائر يموت احزان بلا جدوى
ودمعة سدى !!!
- ***
- هذا هو أمل دنقل الذي نحن بصدد مناقشة ديوانه ((البكاء بين
يدي رقاء اليمامة)) فما هي تلك المدهشات التي تميز أمل كشاعر ؟
أولا - ولعه بحكايات الحياة اليومية الكوميديا النادرة والشائعة
لرجل الشارع وهو بذلك يذكرنا بحكاية توماس دكر التي نجدها
سنة ١٦٠٣ في صفحات ((الطاعون)) من ((العالم المدهش)) حكاية
الزوج الذي طلب من زوجته بعد اصابتها بالطاعون ان تعترف له حتى
تلاقي ربها بلا ذنوب .. وتعترف الزوجة وهي على فراش الموت
بعلاقتها الجنسية بأزواج جاراتها .. ولكنها بعد الاعتراف تشفى من
مرضها ويستطيع القارئ تصور ما يمكن ان يحدث بعد ذلك .
« أمل » يشدنا الى مثل هذه الطبقات الواقعية النادرة والشائعة
والتي تكشف الوان الضعف الانساني بكثافة وحصافة اكثر من خلال
لغة شعره بكل ما فيها من ايحاء وتركيز .
- ص ٦٩ حبيبي في لحظة الظلام ، لحظة التوهج العذبة
تصبح بين ساعدي جثة رطبة
ينكسر الشوق بداخلي وتخفت الرغبة
أموء فوق خدها
أضرع فوق نهدها
أود لو انفذ في مسام جلدتها
لكن يظل بيننا الزجاج والفياب والغربة
.....
- وذاذ ليلة تكسرت ما بيننا حواجز الرهبة
فاحتضنتني ..
لكنها وهي تناجيني ..
سمعتها تناديني ..
باسم حبيبها الذي قد حطم اللعبة !
جاءت الي وهي تشكو الفتيان والدوار
انفقت راتبي على اقراص منع الحمل
ترفع نحوي وجهها المبتل
تسالني عن حل !
.....
- ص ٥٠ هنائي الطبيب حينما اصطحبتها اليه ..
رجوته ان ينهي الامر .. فثار واستدار
ينلو قوانين العقوبات علي كي اكف القول
.....
- افهمته ان القوانين تسن دائما لكي تخرق
ان الضمير الوطني فيه يملئ ان يقل النسل
ان الاثا صار غالبا لان الجذب اهلك الاشجار
لكنه كان يخاف الله والشرطة والتجار !
.....
- ص ٧٤ ودهشة غريبة وثقب باب لم يعد يضيء
.....
- ص ٧٥ لا ترتبك فقد يضيع العمر في هنيهة ارتباك
.....

نايا - تتبع الجزئيات للوصول منها الى حكم كلي عموده الفقري
الموقف الكوميدي .

ص ٤٨ تدق فوق الآلة الكتابة القديمة
وعندما ترفع رأسها الجميل في افتراق الصفحتين
تراه في مكانه المختار ..
يربح عينيه على المنحدر الثلجي في انزلاق الناشرين
(عينيه هاتين اللتين ..

تغسل آثارهما عن جسمها قبيل ان تنام مرتين)
وعندما ترشقه بنظرة كظيمة
فيسترد لحظة عينيه : يتسهم في نومه
وهي تشد ثوبها القصير فوق الركبتين !
.....

في آخر الاسبوع
كان يعد ضاحكا اسنانها في كتفيه
فقرصت أذنيه

وهي تدس نفسها بين ذراعيه .. وتشكو الجوع !

كان « امل » على موعد مع امرأة .. وعندما سألته في اليوم
التالي ماذا فعلت بالامس : اجابني

ص ١١٧ خرجت في الصباح لم احمل سوى سجائري
دستها في جيب سترتي الرمادية
فهي الوحيدة التي تمنحني الحب بلا مقابل !
وعندما سألته عن المصريين القدماء والجدد اجابني :

ص ١١٤ رأيتهم ينحدرون في طريق النهر
لكي يشاهدوا عروس النيل عند الموت
في جلوتها الاخيرة

وانخرطوا في الصلوات والبكاء
رأيتهم في حلقات البيع والشراء
يقايضون الحزن بالشواء

ثم قال لي انه تحدث الى الاسماك وان عيونها الميتة القريرة قالت
له ان طعامها الاخير كان لحما بشريا :

ومن هنا نتقل الى تلك الفئة البشرية التي تؤمن بتناسخ الارواح
فترى روح فنان الكوميدي العظيم نجيب الريحاني تتخذ من رؤية
امل دنقل الشعرية مسرحا جديدا ينبىء عن ميلاد الشاعر الوحيد
بيننا الذي يمكنه ان يملأ عروق المسرح الكوميدي بدماء الكوميديا
الاصيلية كما فعل « بن جونسون » في مسرحية « السيميائي » وكما
فعل « شكسبير » بحكاية « فولستاف » في مسرحية « هنري الرابع » .

ولو ان معاصرة تمت بين الريحاني العظيم وامل تحدثت معجزة
في الكوميديا المصرية تعلقو بنبضها وادائها على « بارسون آدم » فيلندج
و« دون كويكوت » بسرفانتيس ومائلت في عمقها وشمولها « فولستاف »
شيكسبير ولكن ثقني بأن الكلمة كانت وستظل دائما هي الاصعب والاندري
فامتلاك « امل » لها يجعلني انفاعل بامكانية تواجد ممثل الكوميدي
الذي يستطيع ان يصل الناس بها . ويصح لنا وقتئذ ان نزهو
كمصريين بامل دنقل كما يختال البريطانيون والاييرلنديون ببن جونسون
وبرنارد شو .

حياة الشاعر الخاصة واثرها في العمل الفني

ربما لا تكون حياة الفنان الخاصة شيئا يمثل قيمة خاصة بتلون
بها فنه ، ولكننا في معظم الحالات نجدها كذلك ولكنها تبقى دائمة
الاثارة لكل من الناقد والدارس والقارئ .

فنحن مثلا نعرف كل شيء تقريبا عن حياة الشاعر الانكليزي
« كريستوفر مارلو » (١٥٦٤ - ١٥٩٣) الذي مات مقتولا في لحظة

عبث مؤسفة مع صديق له وهو في التاسعة والعشرين - فاذا قرانا
مارلو مسرحيته « التاريخ المأسوي لدكتور فاوستس » فاننا نجد
الكورس في نهاية المسرحية يعني الفصن الاخضر الذي كان يجب
ان يكمل نموه .. وهي نبوءة شعرية اکتملت بها مطابقة حياة الشاعر
في حياة ابطاله وموتهم .. فقد كان مارلو بهذا هو الدكتور
فاوستس في طموحه الجامع للوصول الى القدرة الكاملة كما كان هو
نفسه أيضا « تامبورلين » او تيمور لنك العظيم في عجزه امام الموت .

وفي الجانب المقابل لمارلو نلتقي بشكسبير العالم الذي قلبت
الدنيا حروف كلماته رغم قلة ما نعرفه عن حياة ذلك الفنان العظيم
الذي تزوج بدون مراسيم تداركا للزمن ثم وضعت زوجته « آن هاناواي »
مولودهما الاول بعد سبعة شهور ثم ماتت بعد ذلك تاركة للعالم
شيكسبير الذي لم يتزوج وبالطبع لا يستطيع ان يعيش اعزب .. وهكذا
اصبح السؤال : هل يوجد شخص حقيقي اسمه وليم شكسبير يؤكد
دائما القيمة العالية الخارقة للمألوف في تنوع وسخاء مسرحياته
وقصائده ؟

امل دنقل

وهكذا نحن أيضا في الثقاتنا بالشاعر « محمد امل فهم محارب
دنقل » الذي يبلغ طوله ١٨٤ سم ووزنه ٦٠ كجم والذي ولد في
١٩٤٠-٦-٢٣ في قرية « فقط » التي تبعد ٢٠ كم عن محافظة قنا .
تراه يرحل الى القاهرة سنة ١٩٤١ مع أبيه مدرس اللغة العربية ليبدأ
تعليمه في كتاب الشيخ عبده بعدائق القبة مؤديا التحية لمدرسة
الفصل عند دخولها للمرة الاولى برفع قدمه اليسرى الى رأسه بدلا
من يده اليمنى ثم يعود عام ١٩٤٧ الى قنا فيعلمه ابوه بنفسه مناهج
الروضة والقراءة الرشيدة .. وتستمر حياة التلميذ الصغير في
صحبة والده المدرس مليئة بالاضطراب « والعصا » ومع مرور الايام
وتعديدها وتبادلها تتعدد عقوبات التلميذ الصغير وتبادلها أرجل
السرير الحديدية مشدود الوثاق مضروبا وبأيا .. والشئ الغريب
القامض المثير يكبر ويمتد أسرا عقله نابضا بين جنبه .. ويصبح
الزلاج الداخلي لباب الحمام صديقه الوحيد الذي يدفع عنه شرور
الهجوم الابوي الفاشم على حريته في « الصياغة » وفي الوقوف على
رصيف محطة قنا عام ١٩٤٨ منتظرا مرور قطار « مولانا العظيم جلالة
الملك فاروق » مضحيا بقلعه عظيمة من اجل مشاهدة الملك العظيم .
ويقرا امل دنقل في كتاب ان من حفظ الف بيت من الشعر صار شاعرا
او من هنا اكب امل على حفظ الف بيت حتى يكون شاعرا .

الحياة والموت :

كان الشعر في حياة امل دائما هو الاصرار والنية المبيتة ..
وبدأت رؤيته الكوميديا لحياة الانسان وموته واضحة في اقدامه على
الاقتراب من جسد ابيه المسجى على فراش الموت فيفتح عينيه المفلقتين
بالموت ثم يقفلهما ويخرج من غرفة الميت بلا دموع تسح على الخدين
ليقول للواقفين خارج الباب « لقد مات أبي » .

كان هذا في عام ١٩٥٠ ..

وفي عام ١٩٥٧ يحصل على شهادة الثانوية العامة ثم ينتقل الى
القاهرة ليلتحق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ويقضي بها سنتين
دراسيتين فاشلتين ويبدأ حياته العملية الفاشلة أيضا كموظف
بمصلحة الجمارك ثم يترك العمل متجولا نهاره وليله في شوارع
القاهرة وليس سوى الشعر في رأسه وفي جيوبه وفي حقيبته
ملابسه الصغيرة .

من السفح الى القمة

ويبدأ امل صلته الشعرية بالناس . بنشر قصائده على صفحات
مجلات وجرائد متواضعة وعندما تتعرف به حساسية « أحمد بهجت »

الفنية ينشر الأهرام في يوليو سنة ٦١ قصيدة « بطاقة كانت هنا » التي نجدها في ديوان « زرقاء اليمامة » والتي تستدعي في وجداننا بعضاً من مدينة « أحمد عبدالمعطي حجازي » التي تنبض بلا قلب . هكذا نجد أن « أمل » بدأ علاقته الجادة بالشعر منذ عشرينات أو أكثر قرأ خلالها بوعي شعري وعناية طموحة جميع الشعراء المعاصرين وكثيراً من الشعر القديم والأشعار المترجمة للانجليز والفرنسيين والروس وما عرضته مسارح القاهرة للوركا وسارتر وبونسكو وسعد وهبه ويوسف ادريس ، فهو في الحقيقة قارئ ممتاز تلتقط عيناه جميع حروف الكلمات التي تستهويها على طريق الشعر من نقد ومقال وقصة ورواية ومسرحية وقصيدة .

بعد عشر سنوات من هذه العلاقة الوثيقة بالأدب والفن عامة والشعر بوجه خاص يأتي ديوان « البكاء بين يدي زرقاء اليمامة » فلا نستطيع أن نلتقي به كشاب يافع ولكننا نتعرف به ونحاوله باعتباره رجلاً ناضجاً فهذا الديوان إذن يحتوي أهم القصائد الدنقلية وأكثرها اكتمالاً ونضجاً فما هي أعمق ملامح النضج أو الشخصية الشعرية التي تميز الشاعر في هذا الديوان ، وما هي بالتالي عيوبه وسقطاته التي لا تفتقر بعد كل هذه السنوات الطويلة من تمرسه في فن الشعر !؟

أرسطو والشعر

ما زالت تعاليم أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) الناقد الأول في العالم تحتل مكاناً هاماً في الحياة الأدبية والفنية المعاصرة وسنأخذ هنا بتقسيمه القديم للشعراء الى نوعين بحسب الأصول الموسيقية للبحر البطولي الطويل النفس المشكل من ست تفعيلات وبحر الحياة بخفته وانكماش عدد تفصيلاته .

ينتهي للتصنيف الأول شعراء « الملحمة المأساة » وينتمي للبحر الثاني شعراء الحياة اليومية الجوالون . . بالتطور الفني أصبح بطل التراجيدي من نصيب مسرحية شعراء الملحمة المأساة بكل ما فيهم من لا وعي مفكر ومتأمل ومضرج بالدم . واصبح بطل الكوميديا الراقية والشخصيات المتعاملة معه من نصيب مسرحية شعراء الحياة اليومية الجوالين بكل ما فيهم من وعي مفكر ومتأمل لكنه يتفجر ضاحكاً في النهاية .

وفي النهاية دائماً أمل دنقل بالذات يتفجر ضاحكاً ولهذا ينتمي الى المجموعة الارسطاليسية رقم ٢ . فأمل دنقل ينام في لوكاندات الدرجة الثالثة ويشارك الطلبة الفقراء مساكنهم . . يجوع في ميدان التحرير المكتظ بسندوتشات الفول والطعمية . . يسهر بكوب شاي من معجب بشعره في سيدنا الحسين . . ويوافق على اقامة مزاد لبيع اول نسخة من « زرقاء اليمامة » تصله من « بيروت » ويقضى ليلة ساخرة حزينة يبدد فيها الجنيهات الستة التي قبضها ثمناً لهذه النسخة . . ثم يقع في غرام السيدة ن . ع ويندهش جداً ويصدم جداً عندما يرفض أهل العروسة زواج ابنتهم من هذا الشاعر الطويل النحيل العايب الساخر الحزين والذي حرمة ادارة التفرغ بوزارة الثقافة من صدقتها الشهيرة التي تجود بها على الكثيرين ممن لا يستحقون فتراه بعد ذلك كهلاً صغيراً السن مسترقاً في حل مسابقة الكلمات المتقاطعة على رصيف مقهى ريش .

ثم نقرأ بعد ذلك قصائد أمل فنرى انفسنا امام شاعر يعرف بوضوح شديد ماذا سوف يقول وكيف - بطريقة العلماء - يرسم الصورة التشريحية باتقان ينمو بوعي مخترقاً القلب عن طريق الراس .

أمل دنقل جاسوس شعر محلي ناجح وخطير يمكن ان يكون ضمن هؤلاء الذين يعطون للشهيرة جمعاء شيئاً هاماً وقيماً . . الجاسوس يصل الى المطلقات من خلال الاندماج الكامل . . معلومات مطلوبة ومغامر يهوى المخاطرة . . وهكذا أمل مغامر يهوى المخاطرة (في الفن فقط) يفاقتنا بمعلومات مطلوبة للجميع .

تلصص أمل دنقل رؤيته الساخرة لتصرفات الانسان التي تثير الضحك من خلال التأمل بقصد تصحيح المجتمع المنحرف .

هذه الرؤية هي التي تضع أمل في نقطة بدء تحول جديد في مسرحية الكوميدي الراقية التي لم يكتبها أحد بالشعر العربي حتى الآن . . اقول هذا رغم ان أمل حتى الآن لم يستطع ان يتخذ اتجاهها واضحا في كوميديا قصائده بين كوميديا الطبايع وكوميديا التقاليد والعادات المكتسبة . . كوميديا الاخطاء التي تولد بهاوكوميديا الاخطاء التي نكتسبها من تقاليد حياتنا الاجتماعية الاولى تتسم بالتفكير العميق او الضحك الذي يجيء نتيجة اكتشاف الانسان لسخرية ومبشئة الموقف المعاش وليس الضحك الذي تسببه الرؤية العينية المباشرة وغير المرتبط بالتفكير العميق ولكنهما يشتركان في ثلاث مشابهاة اساسية وهي الغرض التعليمي والواقعية والسخرية من سخافات وعيوب واخطاء العصر .

وقد استطاع أمل ان يحقق لنا هذا في « اقرص منع الحمل » و« الجارية الرومية » و« كافور » و« الاشعري » و« السكرتيرة التي تعد اسنان المدير في كنفها اليسرى في عطلة الاسبوع » وعندما يتحول « رأسه الى مذياع ينشر العبارات الحماسية والصداق » .

مبائضات النقد

أمل دنقل ليس احسن شاعر في جيله كما يدعى بعض النقادوالذي يقول هذا فهو جاهل جداً بالشعر ولم يستطع حتى بينه وبين نفسه ان يجاوب على هذا السؤال البسيط جداً والصعب جداً ما هو الشعر ؟ ومن هو الفنان الذي تطلق عليه صفة الشاعر ؟

أمل دنقل فقط وبالتحديد هو أفضل شاعر مصري استطاع ان ينجح بدون غموض ولا مبالفة في كتابة القصيدة الكوميدي حتى الآن ويمكن في المستقبل ان يعقد على جبينه لواء الشعر الكوميدي الجديد في هذا العصر اذا استطاع ان يحقق عملاً كاملاً في مسرحية كوميديا طبايع شعرية . .

تقييم مختزل

وهكذا يمكننا ان نلتقي في أمل بتلك الإلتصام الساخرة العريضة بين الآلام المرة كما نلتقي بالفيثوري انسانا ابيض اللون من الخارج . . وابوسنه طائراً يمشي على الارض سعيد بمصيره . . وعبد الصبور اميراً للشجن وملكا للفناء الحزين . . والبياتي ممناً للاغتراب والاحساس بالمأساة . . ونزار اغنية جميلة للراديو . . وحجازي فارساً حقيقياً في عصر اخفت فيه الجياد والسيوف . . وكمال عمار انساناً متواطئاً مع نفسه معترضاً على الكائنات . . كما نجد في السياب ثروة مفنٍ عظيم من لا يسمعه يفوته الكثير . . وعفيفي مطر درويشاً له لفته الخاصة . . ثم معين يسبو مدينا يستعير ملابس الفدائيين . . وهكذا الى آخر تلك القائمة الطويلة التي تؤكد اننا نعيش في عصر ذهبي للشعر الذي لا تقرأه الجماهير ورغم هذا فسوف يستمر الشعراء لان الشعر كما يقول لورد بايرون هو مقنونات حمم وبراكين الخيال التي يمنع انفجارها زلزلاً ارضياً .

البكاء والضحك

نعود من جديد الى محاولة لتفسير بكاء أمل بين يدي زرقاء اليمامة لتتعرف على ما يراه هو وما يجعلنا نحن نندمج معه في هذه الرؤية من خلال نبوءته الشعرية فنرى علاقة الانسان بالانسان علاقة مزيفة ومفرضة ووقتية . . الإلتصام بكاء مختنق يتخذ شكلاً مادياً في انفراج الشفتين . . الضحك الم مروع . . السعادة ملك منزوع العرش وسجين في برج لندن او برج القاهرة . . البرضا

تفاؤل الذي القى بنفسه من كويري قصر النيل والحب زحام على بضاعة يقف عليها الذباب فرؤية امل للمرأة (ص ٦٩٠٦٧٠٦٣٠٥٣) تجردها من جميع اثواب الرومانسية العفة التي ينفق محمد ابراهيم ابو سنه ايامه على غزلها بدلال ونعومة !!

القصيدة الدنقلية

وهكذا أجد امل دنقل وشعره كلا واحدا لا يتجزأ .. الشاعر والتصيدة .. لكنه في تنوعه وقدرته على استخدام اللاشعور الذي يدرك من خلال الرؤية بالبر .. وقدرته غير المحدودة على الرؤية البصرة التي تخاطب الشعور من خلال العقل والنطق والبلاغة .. هذا التنوع يجعله الشاعر المعاصر الوحيد الذي يمكنه كتابة الكوميديا الراقية اولا وفي المرتبة الثانية الكوميديا الراقية .. وهنا يشهر كمال عمار سيفه الشعري كحارب محنك « عضمه ناشف » ليثبت باسمه علما على مرتفعات الكوميديا منافسا عجوزا وخطيرا لكهولة امل الشابة .

التراجيدي

اما التراجيديا الخاصة او المأساة التامة والتي يذكرها البطل فيها نيران قدره الحثوم ويشهد السيوف التي تخترق صدره في النهاية وتنتهي بحياته الى الموت الفاجع فهي عطاء نوع آخر من الشعراء الذين ينتمون للقسم الاول من تصنيف ارسطو والذين يفكر الله آلاف المرات قبل ان يجعل قدرهم هذا العشق القاتل والعذاب اليومي المتع .

شاعر الكوميدي

نعود الى امل دنقل شاعر الكوميدي ذلك النسيج الغريب الذي نلتقى فيه بعاطفة « جون دن » المفكره وبفكره العاطفي لنجد تجسيدا حيا لما قاله برنارد شو من ان الحياة ليست سوى متتالية حماقات مفروضة من السماء . ثم تكشف تناسخا منهشا بين امل وبين هنري فيلدنج روائي القرن الثامن عشر الذي كان يتعاطف تماما مع الزنا والاعتصاب والاطفال غير الشرعيين ويقودك من خلال عمل فني مكتمل الى سرداب الضحك على العفة التي تختفي مع دقائق المأذون التقليدية . ثم نقف طويلا امام ما اعلنه « فيلدنج » من ان رواياته « نوم جونسن » و« جوزيف اندروس » و« جوناثان وايلد » هي ملاحم كوميدي بالنثر في مقابل ملاحم التراجيدي بالشعر . ولقد حقق امل في الفترة الماضية القصيدة الكوميدي بنجاح مؤكد وهذا ما يجعلنا نتنظر منه مسرحا كوميديا كاملا بعد ذلك .

ملاحظات انسانية

عندما التقى بامل دنقل فأنني ارى فيه مأساة العصر الضاحكة او الضحك المأساوي المعاصر .. فهو حملة مركزة للضحك على المحتوى العابت للأشياء ذات المظهر الجاد .. وهو انتقال سريع وحاد من لحظة اليقظة الى لحظة الانتباه .. ومن لحظة الانتباه الى لحظة الغفلة .. نجد في شعره تجزئنا للكل كما نجد تعميما للجزء . وتفويض سطور شعره بهذا التناقض المستفز بين المثال التنظيف والواقع الوقح وكشخصية كوميديا ارى فيه الوجه الايجابي لدون كيشوت .. وفي علاقته بالحياة فلتقي به رافعا شعار هوراس « استمتع باللحظة الحاضرة » ولهذا تجده دائم الافلاس ودائم التجوال لكنه لا يتطفل على مائدة احد مهما بلغ به الجوع وينفق مسرفا كل ما يصل الى يده .

مصر والدول العربية

اما رأي امل في المشاكل السياسية والاجتماعية لمصر ودول منطقة الشرق الاوسط فتتلخص فيما سبق ان وصف به « جمال الدين الافغاني » داء الشرق وهو اختلافنا على الاتحاد واتحادنا على الاختلاف

وامل كلافغاني في ايمانه بان الكمال النسبي في البشر لا يكون الا متى كثر الاعلان وقل الكتمان وذلك هو المدخل الصحيح لديمقراطية الرأي وحرية الفكر .

ومن قرأ للافغاني ايضا قوله :

« لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا ادا ب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولاتاريخ لهم اذا لم يقيم فيهم ومنهم من يحيي آثار رجال تاريخهم » يستطيع ان يتعرف اكثر على احساس امل دنقل الذي هداه بالموهبة الى معالجه لهذه القضايا الوطنية والانسانية في قصائده المتنوعة :

نجد « امل » يشبب اظافره متشبيها بأرض وطنه مؤمنا بديمقراطية المبنى والمعنى .. المظهر والجوهر . الشكل والمحتوى .. الباب الذي يؤدي الى مكان معد لاستقبال الانسان واحترام ما فيه من شعلة الحياة الريفانية وليس لاعتقاله ومصادرة الاكسجين المجاني الذي يمنحه فرصة التنفس الوحيدة .. وان العطاء الدنيوي يجب ان يكون شيئا اخر .. شيئا اناسيا ينبذ الحرب والعداوة .

ص ١٢١ امثل ساعة الضحى بين يدي كافور

ابصر تلك الشفة المثقوبة

ووجهه المسود والرجولة

ابكي على العروبة .

ص ١٢٢ سئمت من مصر ومن رخاوة الركود

سئمت - مثلك - القيام والقعود ..

بين يدي اميرها الابله

ص ١٢٧ عيد باية حال عدت يا عيد

بما مضى ؟ ام لارضى فيك تهويد ؟

نامت نواظير مصر عن عساكرها

وحاربت بدلا منها الاناشيد

بانيل ما بك هل تجري المياه دما ..

لكي تفيض ويصحو الاهل ان نودوا ؟!

كل هذا يملأ قلبي بالرعب والشفقة على صديقي امل دنقل عندما اذكر كيف مات جمال الدين الافغاني هذا الفكر الشريف مصابا بسرطان في الفم ثم دفن كرامة الناس ومنعت الجرائد الثمانية من نعيه او تأبينه حتى جاء « اشارلس كرين » المستشرق الاميركي ١٩٣٦ فبنى للافغاني قبراً يليق به .

معذرة اذا طال بنا الحديث وتشعب .. ولكن ماذا افعل بازاء خصوصية الرؤية الشعرية الدنقلية التي اعتبرها نموذجاً وتميلاً وتقديماً حياً وواعياً ومخلصاً لروح المصريين التي اشتهرت بالثكثة والفكاهة والحزن الهادئ التأمل ..

شعر امل هو المسئول عن استدعاء الافغاني والريحاني وبن جونسون وشيكسبير وفيلدنج ودن وكر وفانتيس وشو وبايرون واربطو ومارلو والحرب العالمية الثانية وقنا والقاهرة وحجازي وبسيسو وعبد الصبور وكمال عمار وعفيفي مطر والسياب .

ماذا حدث في مصر :

ثم يشدنا الى استدعاء شاعر العامية احمد فؤاد نجم ، فامل هو الوجه الفصحى المقابل لوجه نجم العامي ، ولكن تميز امل يكمن في قدرته على النفاذ بالفصحى فيما يسهل على العامية ان تعبر عنه .. اما تماثلهما ففي ذلك التناول الكوميدي للقضايا الاجتماعية والوطنية . وفي لا نهائية التجول اليومي والاصرار اللاشعوري على ان يكون الشعر مادة للحياة الامر الذي يجعلهما لا يصلحسان لاي عمل آخر .

ولقد كانت قصائد امل وقصائد نجم ظاهرة واحدة انتشرت بعد هزيمة مصر عام ٦٧ بسبب ما فيها من كوميديا تماثق جذور الفكاهة الحزينة التاملية تسلهمها والضحك على نفسها من واقفها الذي يفرض الصبر والانتظار فتحاول ان ترخي اعصابها المشدودة المتوترة

بالتنكيك والتبكيك الذي كان عنوانا لاحدى صحف الكوميدي الثائر عبدالله النديم او كما يتساءل نجم في غناء الشيخ امام الحزين « ايه آخر الصبر ياشيخ ايوب ولا متى الحريات مغلوب » او في اغنيته الرائعة عن الغربة والتي يرفض فيها وهو المواطن المصري ان يعيش غريبا في وطنه يرويه عرق الفلاح .

ومن هنا مالت الاذن الى مفناطيسية امل في « زرقاء اليمامة » وموسى الاشعري « ومذكرات المنشي » « والجرح الذي لا ينفجح » كما استقطبها نجم في « شعبان ابن بهانة » و« توت حاوي » والاغنية الساحرة « يعيش اهل بلدي وبينهم مفيش تعارف يخلي التحالف يعيش » والاغنية التي تثير الاشمئزاز والرهبه « الحمدلله خبطنا تحت بطاطنا » .

وهكذا كانت كلمات نجم في اغاني الشيخ امام قصائد امل هي المرأة التي عكست عربنا وكشفت عوراتنا واوضحت اننا في حالة ارتشاء ولسنا في حالة انتصاب فانجرتنا بالضحك المر والبكاء الفاجع كما ابتمنا في لحظة اغتسال وجوهنا بالدموع .

اذن فنتقيمنا لامل دنقل لا يزيد عن حدود قدرته على التعبير الكوميدي المؤثر والعميق لما في حياتنا الاجتماعية والوطنية من قصور وانكسار وهزيمة وانتظار وهذه هي اعماق ملامح النضج او الشخصية الشعرية التي تميز بها الشاعر في قصائده .

السقطات

انتقل بعد ذلك الى عيوب وسقطات الشاعر الغنية التي تستفزني بقدر حسي له واعجابي به .. فلقد تخطى امل فترة المراهقة الشعرية منذ زمن بعيد . فلقد اصبح له وجهه التميز بهذه الرؤية الكوميديّة والتي تقرى من لهم مثل نبضه من الشعراء الناشئين بقراءته جيدا وتتبع خطاه في احيان كثيرة « كفتحي فرغلي » مثلا مما يلقي على عاتقه كثيرا من مسئولية الابداع .

فنحن لا نستطيع ان نتناول قصائد هذا الديوان باعتبارها اول مجموعة من الشعر الجديد يكتبها امل وعلى قدم المائتة نلتقي بهذه الحقيقة في ديوان « انهار الملح » لكمال عمار وديوان « من دفتر الصمت » لعفيفي مطر وهكذا نجد انهم لا يخضعون لنفس النماذج الذي يختلف تماما في المعالجة النقدية لنواوين « الناس في بلادي لصالح عبدالصبور سنة ٥٧ و«مدينة بلا قلب » لاحمد حجازي سنة ٥٩ وايقاع الاجراس الصدئة » لبدر توفيق سنة ٦٥ .

ثم جاء ميلاد زرقاء امل دنقل هذا العام مستفيدا بكل الخبرات السابقة ومن هنا تشكل بصمات الشعراء الاخرين في قصائده قصورا شعريا لا يقتصر كبصمة ادونيس الواضحة في قصيدة « ظمأ » .

وهنا يرفمنا امل مرة اخرى على استدعاء الشاعر علي احمد سعيد او ادونيس كما يحب ان يسمي نفسه ..

ان ادونيس يمثل حضارة ونضارة وريادة شعرية من نوع خاص منطلقا من القواعد الصاروخية المبكرة في الوان ومعاني حروف « رامبو » وفي اختبارات « جورج باتاي » الباطنية والتي تضع كل شيء تحت الشवाल دون استراحة مقبولة ولا جواب قاطع مما يمزق النفس ويشوه الاحساس ويصبح الاختبار الباطني بذلك سلطة عليها ان تكفر عن ذاتها .. وهذا في الحقيقة عالم يختلف عن روح الكوميديا المصرية المتأصلة في وجدان امل .

ثم يخرج لنا ادونيس بعد ذلك من بين حدائد « بيبريريفردي » العتيقة .. ومن قرأ تحولات ادونيس وهجرته بين اقاليم النهاسر والليل فليقرأ معي هذه السطور من « الحدائد العتيقة » الذي صدر عام ١٩٣٧

في اخفى طبقة واطئة من فاقتي
حيث اصطبغت الرذيلة بصبغة الموت
اعيد النغم الى الاسطوانة
.....
كل ما استعادوه من دواليب صديري
هو تلك الساعة التي تدق دون توقف

والوميض المر الذي ينحدر نقطة نقطة
بين اليد والعين .

.....

اذهب الى ما ابعد ماذا يدى لحركة الساعة اللاواعية
فضول خارق اعماق قلبي

وانت الذي يتهمج على صدغك ضجيج خافت
من فورة الخطيئة حتى نفس الزهور

جئة وروحة مضية

رجوع التعب الى الورا

والزمان نقطة نقطة يحفر حجرك الاجرد

صدر خربه فولاذ الدقائق

واليد في الظهر التي تدفع الى المجهول

عالم امل دنقل الشعري يفسر لنا المذهلات ويصدنا بالمتناقضات اليومية المعاشة مما لا يتسق مع سقوطه في العالم الادونيسي المستعار من عالم بيبريريفردي الذي يرى ان من خصائص الانسان حاجته التي لا تفسر الى المذهلات وان الشاعر ليس له ما اتفق على تسميته بالجمهور ولا ينبغي خاصة له ان يفتش عن هذا الجمهور .. وهذه كما نرى رؤية قد تتسق مع ادونيس ولكنها تتنافر تماما مع امل .

الانقسام الداخلي :

شيء اخر انتقل اليه في الحديث عن عيوب القصيدة الدنقلية تجعلني ابدأ بالاشارة الى القصيدة القديمة التي كانت تعني اساسا بوحدة البيت بل وبوحدة الشطره على حدة . ومن هنا كان تندرنا على امكان وضع البيت الخامس عشر مكان البيت الاول او حذف البيت الثالث والخامس والتاسع دون ان يؤثر هذا على المعنى .

وفي معظم قصائد امل ارتداد الى هذا القصور القديم لان معظمها يقوم على وحدة المقطع فالقصيدة الدنقلية ليست كلا متماسكا ويمكن وضع المقطع الاول محل الثالث او الرابع او حذف بعض مقاطعها دون الاحساس بان القصيدة قد فقدت جزءا منها .. قليلة في شعر امل تلك القصائد التي تفرض علينا الحفاظ على شكلها العام .. ومن بطن هذا الجسد الدنقلية نخرج بحقيقة هامة وهي انه شاعر قصير النفس يملك القدرة على البناء المتماسك المركز داخل المقطع الذي يعبر عن موقف كامل مستقل بذاته ، وهكذا نرى امل خلف الجهاز المشع ... تبادل قلبه وعقله الاوضاع فأصبح يفكر بقلبه ويحس بعقله .. الامر الذي يؤكد لدي كوميديته وقدرته على الخلق الدرامي المتفوق في هذا المجال .

تبقى لنا بعد ذلك ثلاثة عيوب اخرى في شعر امل :

اولها « الحشو » وثانيها الهبوط بالشعر الى مستوى الكامييرا وثالثها اجهاض الرواية الشعرية للقارئ بشرح التفاصيل التي لا تفسح مجالا لتصوره وشعوره الخاص وهي نفس الذنوب التي كان يفتريها الشاعر الممتاز في القصيدة العمودية الراحلة وعلى سبيل المثال نجد هذا في ص ١١،٣٩،٣٩،٣٩،١١ .

الشاعر :

ان اصل الى نهاية .. وهنا احب ان اقول ان الشاعر تجربة منفردة متميزة أصيلة واعية ولا واعية .. بركان ينفجر من ارض موهوبة مشيدة عصريا بخبرات الماضي والحاضر ورؤيا المستقبل ... وهكذا ارى امل دنقل شاعرا من هذه النوعية التي لا يسغوبها اليبلاذ الا نادرا .. ولقد حقق امل هذه الندرة في القصائد رقم ١١،٨٤،١١،٨٤،١٩٤١٨٤١٤ .

بدر توفيق

القاهرة

المراجع :

- ١ - البكاء بين يدي زرقاء اليمامة (امل) دنقل
- ٢ - زعماء الاصلاح في العصر الحديث (احمد أمين)
- ٣ - الادب الفرنسي الحديث (غايتان بيكون)
- ٤ - الشعر (أرسطو)